علمُ المَعانيّ عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز".

قراءةٌ في المرجع النّحويّ ، والتّوجّه البلاغي مع مقاربة لسانية حديثة

أ عبد الرحيم البار جامعة الوادي

الْمُلَخَّصُ: الْدَّارِسُ لِكِتَابِ دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ لِلْجُرْجَانِيّ يَلْحَظُ مِيْزَتَهُ الْتَّرْكِيبِيَّةُ الْمُسْتَقَاةُ مِنَ التُّرَاثِ اللُّغَوِيّ الْعَرَبِيّ؛ فَهُوَ كِتَابٌ بَلَاغِيٌّ جُلَّ مَوَاضِيعَهُ تَتَنَاولُ عَلْمَ الْمَعَانِيّ وَأَنْمَاطِهِ، مِنْ أَحْوَالِ الْإِسْنَادِ، وَقَضَايَا كَالْفَصْلِ وَالْوَصَلِ، وَالْتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيْرِ، وَأَسَالِيْبِ الْخَبَرِ وَالْإِنْشَاءِ فَأَوْضَحَ صَاحِبَهُ نَظْرَتَهُ فِيْ نَظْمِ الْكَلَامِ، وَبَيَّنَ مُقْتَضَيَاتَهُ الدَّلَالِيَّةُ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى 'بِنَظَرِيَّةِ النَّظْمِ' عِنْدَهُ؛ بِدْءًا بِنِظَامِ التَّعْلِيقِ وَالْإِحَالَةِ وَالرَّبْطِ ثُمَّ قَوَاعِدَ نَظْمِ الاسْتَعْمَالِ. وَإِنْ كَانَت مَبَاحِثُ الْكِتَابِ تَتَنَاوَلُ قَضَايَا عِلْمِ الْمَعَانِي مِنْ مُنْطَلَقِ التَّأْسِيْسِ لِنَظَرِيَّةِ النَّظْمِ فِيْ عِلْمِ الْمَعَانِي، فَهَذَا لَا يَفْصِلُهَا عَنْ بُعْدِهَا النَّحْوِيُّ الْمُتَأَصِّلُ، بَلْ إِنَّ عِلْمَ الْمَعَانِي لَيْسَ إِلَّا فَلْسَفَةَ النَّحْوِ بُغْيَتُهَا الْوَقُوفَ عَلَى خَصَائِصَ أَسَالِيبِ الْكَلَامِ. فَكَيْفَ نَقْرُأُ هَذِهِ الْقَضَايَا الْبَلَاغِيَّة الاسْتَعْمَالِ، وَالنَّحْوِيَّةِ الْمَرْجِعِ؟، وَمَا دَوْرُهَا فِي تَحْدِيدِ وَظَائِفِ الكَلَامِ؟. وَهلْ مَا ذَهَبَ إِلِيهِ الجّرْجَانيُّ يُفْضِي إِلَى نَظَرِيّةٍ لِسَانِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ حَدِيْثَةٍ يَتَجَلَّى فِيهَا الْبُعْدُ اللِّسَانِيُّ الْوَظِيْفِيُّ وَالتَّدَاوُلِيُّ الْحَدِيثُ وِفْقَ مَا يَتَنَاسَبُ وَالطَّابَعُ اللُّغَوِيُّ الِعَرَبِيُّ؟ وَكَيْفَ نَسْتَثْمِرُ جُهْدَهُ فِي كِتَابِهِ دَلَائِلُ الْإِعْجَازُ 'المختص بعلم المعاني؟. وسنأتي على توضيح مقصد مقالنا في نصّ تحريره.

-Abstract: The student of the book of dalayil al'iiejaz lljjrjany; notes the structural advantage derived from the valuable Arabic linguistic heritage; it is a book of the most important topics of the semantics and its sections: the conditions of attribution, issues of separation, In the systems of speech, and between the requirements of semantic, which is called 'theory of systems' starting with the property of suspension and linkage, and the rules of systems of use, although the study of the book deals with the issues of semantics from the foundation of the theory of systems and the statement of rules, L, but the semantics is: the philosophy of grammar in the knowledge of the characteristics of speech styles. How do we read these rhetorical issues of use, grammatical reference and what role in determining the functions of speech ?. And what did Al-Jarjani go to converge and the modern linguistic orientation in both its functional and deliberative aspects?

1-عبد القاهر الجّرجانيّ: نشأته وحياته، ومنهجه في دراسة اللّغة:

أ-نشأته وحياته: هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد الجرجانيّ (400-471هـ/1009-1078م) النّحوي المتكلّم، ولد في جرجان[1] لأسرة رقيقة الحال، نشأ ولوعاً بالعلم، محبّاً للثّقافة الأدبيّة والإسلاميّة، فأقبل على كتب النّحو دراسة وقراءة، واهتم بمطالعة الأدب العربيّ شعرا ونثرا. نشأ في أسرة متوسطة الحال عيشا ونشأة، وحال هذا الوضع الماديّ دون سفره لأخذ العلم خارج مدينته جرجان كان اهتمامه بعلوم النّحو والأدب والشّريعة غالبا على جلّ شؤون حياته وبرز في سنّ مبكرة من عمره. ومن حسن حظّه أن وجد في مدينته عالمين كبيرين، وهما 'أبو الحسين بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي النّحوي'[2]، و'القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني'[3]. وتأثّر عبد القاهر بأستاذه أبي الحسين الجّرجاني، وقد تتلمذ من كتب وآثار علماء النّحو أبناء الحاضنة العربيّة؛ ودليل ذلك نقله عن 'سيبويه، والجاحظ، وأبي علي الفارسي، وابن قتيبة، وقدامة بن جعفر، وأبي هلال العسكري، وأبي أحمد العسكري، وعبد الرّحمن بن عيسى الهمداني والمرزباني، والزجاج'[4].

اعتنق الجّرجاني المذهب الشّافعيّ، وتكلّم بالطريقة 'الأشعريّة'[5]، ونجد في كتاب 'سير أعلام النّبلاء' وصفا دقيقا لشّخص عبد القاهر الجّرجاني –رحمه الله- حيث يقول صاحبه الذّهبيّ: هو "شيخ العربية، أبو بكر، عبد القاهر بن عبد الرّحمن الجرجاني أخذ النّحو بجرجان عن أبي الحسين محمّد بن حسن بن أخت الأستاذ أبي علي الفارسي...وكان شافعيا عالما أشعريا، ذا نُسك ودين، توفي سنة إحدى وسبعين وأربع مئة"[6] للهجرة، تميّزت مرحلة بروزه بعدم الاستقرار السياسي وكثرة الحروب. ولم يكن هذا في حقيقة الأمر مانعا في طلب العلم لديه والتّزوّد بالمعارف، بل ظلّ منكبّا على ما وافقه من محاصيل العلم لغة وأدبا وشريعة بحثا ودراسة. أمسى عبد القاهر الجرجانيّ مدرسة أفضت إلى حاضنة اللّغة العربيّة كمّا هائلا من المعارف وخاصة في كتبيه 'دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة'؛ وأسهم في تنشئة علماء لغة تتلمذوا على يده أبرزهم: "علي بن محمّد بن علي أبو الحسن بن أبي زيد المعروف بالفَصيحي من أهل أسْتَراباذ، بلدة من أطراف خراسان. قرأ النّحو والبلاغة والعربيّة على عبد القاهر الجّرجاني وبرع فيه حتى صار من أعرف أهل زمانه به، وأصبحت له شهرة كبيرة، ثم ترك جرجان، وانتقل إلى بغداد إلى أن توفي بها سنة 516 هجرية، وهو من أشهر تلاميذ الجّرجاني –رحمه الله- وسمّي بالفصيحي لكثرة دراسته كتاب 'الفصيح' لثعلب، قاله ياقوت الحموي، وأحمد بن عبد الله المهاباذي الضرير و'مهاباذ' هي قرية بين قم وأصبهان ولقِّب بالضرير لأنّه كان ضريرًا، تتلمذ على عبد القاهر الجّرجانيّ واستفاد منه كثيرًا حتى اكتسب شهرة، ومن أبرز مؤلّفاته كتاب 'شرح اللّمع لم يسبق إليها، بل مثّلت ثمرة أعماله وجهوده في النّحو، وخاصة في عمله لابن جني' وهذا الكتاب يوجد منه نسخة في خزانة الشّيخ محمّد الطاهر بن عاشور بتونس، كتبت سنة 591 هجرية. وأحمد بن إبراهيم بن محمّد أبو نصر الشجري تتلمذ على عبد القاهر الجّرجانيّ واستفاد منه كثيرًا، وقرأ عليه كتاب 'المقتصد' لعبد

القاهر الجّرجانيّ. وقد كتب عبد القاهر الجّرجاني نفسه بخط يده ما نصّه: 'قرأ عليَّ الأخ الفقيه أبو نصر أحمد بن إبراهيم بن محمّد الشّجري – أيّده الله – هذا الكتاب من أوّله إلى آخره قراءة ضبط"[7].

عرف عبد القاهر بسعة الصّدر في تقبّل النّقد ومناقشة معاصريه، وتميّزه بأفكار ذو طرح جديد في نظم الكلام، وقد اعتبرت 'نظرية النّظم'[8] مستجدا معرفيّا هامّا يضاف إلى علوم اللّغة العربيّة، وخاصة البلاغة، وعليها قامت دراسات لغوية حديثة خصّته بمباحث علمية واسعة مستلهمة أفكاره وأطروحاته منها، رغبة في استنطاق (نظرية النّظم) وتوظيف أساليب جديدة خدمة للغة الضاد. وهكذا الصّورة العامة لحياة الجرجانّي المعيشية والمعرفية وما ميزها سمة البساطة والجدّ والأخلاق، والشغف في طلب العلم، وتحصيل المعرفة.

ب-منهجه في دراسة اللّغة: من المؤكّد أنّ عبد القاهر الجّرجاني -رحمه الله- كانت له رؤية خاصة في استنطاق علوم البلاغة العربيّة وربطها بالموروث النّحوي العربيّ، راجيا في ذلك فكّ غموض النّقصان العارض على استعمال اللّسان العربيّ في زمنه؛ كون البلاغة في نظره أخذت تنحو صوب الغموض والابتعاد عن الاستعمال الصّحيح، واتّضح ذلك جلّي في كتابيه البلاغيين 'أسرار البلاغة'، و'دلائل الإعجاز'، وخاصة في عرضه لقواعد النّظم، وكان للجّرجاني الطّريقة الأمثل في عرض أفكاره، وبرز منهجه بوضوح في عرض كتابه 'دلائل الإعجاز'، ونستلهم خطواته المنهجيّة في ذلك؛ من خلال آراءه الآتية:

1-التّمسك بالنّحو وأصوله؛ من ناحية عقائديّة: لا يخفى أنّ الجّرجاني إمام حافظ لكتاب الله تعالى، داريا بعلوم الشّرع؛ لاسيّما منها علوم القرآن؛ ودليل ذلك كتبه في الإعجاز والتفسير، فهو يستقي مادته المعرفيّة من علوم النّحو العربي، والمطّلع على كتاب دلائل الإعجاز يلحظ قوة الاستشهاد والتمثيل النّحوي؛ حتى أنّ هناك من وصفه بكتاب نحوٍ أكثر منه بلاغة؛ وخاصة تفصّله في مسائل النّحو؛ ولكن هذا ليس إلّا دلالة قوية على ربط العلّامة الجرجاني مفاهيم البلاغة وقواعدها بمعطيات النّحو العربي: "ومن خلال ترتيب منهج الجرجاني ندرك أنّه قد أصاب الهدف في شرحه لأهمية النّحو قبل أن يأخذ بالحديث عن نظرية النّظم، وأهميته تأتي من خلال البدء بمعرفة أصول النّحو حتى ندرك أهمية الكلمة، وهي تدخل في سياق النّظم لتؤدي غرضها اللّغوي وغرضها المعنوي. وهذا يدلّ على أنّ الجّرجاني يدرك بعقله النّقدي المتطوّر وحسّه البلاغيّ، وذوقه الأدبي أنّه لا يمكن إدراك قيمة اللّغة إلا من خلال موقعها النّحوي أوّلا، ثم من خلال موقعها في سياق الكلام ثانيا"[9]، وهكذا تتجّلى نزعته اللّغوية في قراءة البلاغة وبسط أفكاره فيها؛ مفسّرا ذلك بالصلاح اللّغوي الذي يضمن البقاء على الصّحة والصواب في استعمال دلالات اللّغة العربيّة؛ وردّ على المقصّرين والمتطاولين على نظام النّحو العربي بالتشكيك في نواياهم حتى أنّه اتهمهم باستهداف الدّين الحنيف: لأنّهم رأوا النّحو"ضربا من التّكلّف، وبابا من التّعسّف وشيئا لا يستند إلى أصل ولا يعتمد فيه على عقل، وأنّ ما زاد منه على

معرفة الرّفع والنّصب وما يتصل بذلك ممّا تجده في المبادئ، فهو فضل لا يجدي نفعا...وآراءٍ لو علموا مغبّتها وما تقوده إليه، لتعوّذوا بالله منها،ولَأَنِفُوا لأنفسهم من الرّضا بها، ذاك لأنّهم بإيثارهم الجهل بذلك على العلم في معنى الصّادّ عن سبيل الله، والمبتغى إطفاء نور الله تعالى"[10]، كما نلمس في هذه العبارة وازعه الإسلاميّ المحافظ؛ فهو يرى أنّ الحفاظ على اللّسان العربي وصونه من الانحراف؛ من المسؤوليات العقدية التي لا يمكن بأيّ حال التّنازل عنها، أو التقصير في أدائها نظرا للارتباط الوطيد بين اللّغة العربيّة والدّين الإسلاميّ الحنيف، وعلى اعتبار أنّ اللّغة العربيّة هي المنطلق الأساس في فهم قواعد الشريعة الإسلاميّة فبهذا الوصف لآرائه؛ تتبيّن إحدى لمحات الجرجاني المنهجيّة؛ المتمثّلة في انتمائه اللّغوي النّحوي الموروث من مشايخه وعلماء زمانه ونزعته الدينيّة الإسلاميّة المستسقاة من بيئته المحافظة التي ترعرع فيها؛ ونستلهم حرصه الدؤوب على ما أسلفناه من قوله: "وأمّا زُهدهم في النّحو واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتهاونهم به...أشبه بأن يكون صدّا عن كتاب الله، ومعرفة معانيه"[11]، فسمة المحافظة والتأصّل لازمت جلّ خطواته.

2-تمسّكه بآراء أساتذته، وتأثّره بعلماء زمنه: من الواضح أنّ الجّرجاني أخذ علوم اللّغة والشّرع عن جماعة من علماء زمانه، فقد ذكر الرّواة أخذه علوم النّحو واللّغة على يدي أبي الحسين بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي النّحوي، والقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، وتأثّرا بآراء الخليل، وسيبويه، والجاحظ، وأبي علي الفارسي، وابن قتيبة، وقدامة بن جعفر، وأبي هلال العسكري، وأبي أحمد العسكري، وعبد الرّحمن بن عيسى الهمداني، والمرزباني، والزجّاج، فهو ذو منهج لغويّ تراثيّ ينبع من أفكار وآراء علماء اللّغة الكبار، ونقله لتفاسيرهم حول علوم النّحو، وقراءته 'المقارنة المتزنة'[12] في شرح وتفسير علوم اللّغة ومظاهرها، واتضح ذلك جليّا في شواهد كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، فهو يحتج بآراء ويثني عليها ويردّ على آراء ويعقّب عليها برأيه، ويفسّر إشكالات اللّغة من منطلق مرجعيّ بحت قوامه التأصيل والموازنة بين الآراء وتحقيق الصواب في ضبط مسائل اللّغة.

3-التّفكير الفلسفي، والتّفسير المنطقي لقضايا اللّغة العربيّة: "حفل جهد عبد القادر الجّرجانيّ البلاغي والنّقدي بعدد من العلامات المنطقيّة، وقد انتظمت في أثناء فصول 'الدّلائل والأسرار' بصورة لا تبدو فيها حادة الجوانب، بارزة في تميّز من لحمة التحليل الذي يجريه المصنّف، ولكنّنا باستقراء متأنّ نلحظ أنّ العمل التّنظيري احتاج من عبد القاهر إلى ركائز عقليّة وأصول ثقافيّة كان من ضمنها المنطق أو بعض مسائله على وجه التّحديد، وتنتسب هذه المسائل إلى المفهوم (الأورغانون)'[13] الأرسطي وتداخل الأقيسة فيه بحيث جعل للشّعر والخطابة أقيسة منطقيّة تباين البراهين اليقينيّة واستدلالات الجّدليين وأهل السفسطة"[14]، كان للجرجاني -رحمه الله-أسلوبه الخاص في تبنّي قواعد النّحو واستنطاق مفاهيمه؛ بما يتلاءم ونظرته الفكرية في بناء قواعد البلاغة من معان وبيان، ولهذا فقد كان

السبّاق في تقنين البلاغة ورسم أسسها رغم المحاولات الأوّلية التي سبقت أعماله، مقاسه في ذلك إخضاع النّقل إلى العقل بما لا يتعارض وأسس اللّغة ومبادئ الشّريعة الإسلاميّة؛ ولهذا كان توجهه أشعريا أكثر منه إلى الفرق الكلاميّة الأخرى كالمعتزلة، فقد استعرض دراسات متعدّدة ضمن كتابه 'دلائل الإعجاز' واقفا عند حدود المقاربة العقلية، والتأويل المنطقي في شرح آراءه ومواقف علماء اللّغة في تفسير قضايا التّأويل بالحذف والتّقدير، والوصل والفصل، والتقديم والتأخير وغيرها من قضايا معاني النّحو وأثر ذلك في بلاغة الكلام. ويتضح ذلك جليّا في نظرية النّظم؛ قد مثّلت قوّة فكره ودقّة توجّهه المعرفي وبيّنت طرحه المنطقي: "لذلك نظر الشّيخ عبد القاهر إلى مفهوم النّظم نظرة عالية التجريد باعتباره ليس سوى تنظيم وترتيب الكلمات حسب إرادة 'الناظم' بشرط احترام قواعد النّحو. ثم اعتبر أنّ عملية النّظم ذاتها ليست سوى عمليّة علمية تقوم على تطبيق قواعد ثابتة مثلها مثل أي عملية فنية 'تقنية' دقيقة تعتمد على العلم. فالمادة الخام هنا هي الألفاظ، المتفق على معناها عرفا، وقواعد النّحو التي تحدد كيف يمكن أن تنتج مجموعة من الألفاظ معنى"[15]. وفي هذا الصدد نورد قولا يصف عبد القادر الجّرجاني من ناحية فكره ومنهجه؛ ومفاده: "عبد القاهر الجّرجاني فيلسوف نحويّ، له منهجه الفريد في علم النّحو، فقد استطاع بما أوتي من الحكمة أن يلبس الكلام ثوبه اللائق به في المعاني النّحوية، وأنّ كتابه ((دلائل الإعجاز)) يعدّ ثمرة لجهود نحويّة جديدة لأنّه خرج بالنّحو من دائرة التعليلات العقيمة عند بعض النّحويين إلى محيط المعانيّ التي تكمن في طيّات التراكيب أو نقول أنّه تخطّى بالنّحو من مرحلة وقوف بعض النّحويين عند القاعدة إلى الانطلاق في أفاق المعاني التي لها ثمار وضع القواعد النّحوية"[16]. وهكذا كان التقديم في هذا الفصل لحياة الجرجاني والوقوف على أعماله ومميّزاتها، ثم منهجه في كتابه وأهم مميزاته من أفكار وآراء بما يسمح لنا فيما بعد التوغل بكلّ دقة في صياغة عملنا المبتغى.

وبما أنّ موضوع مقالنا يدور حول علم المعاني عند عبد القاهر الجّرجانيّ؛ فهذا يحيلنا مباشرة نحو كتابه: ((دلائل الإعجاز))، فهو مجال علم المعاني الذي حدّث فيه صاحبه، ووضّح معالمه وأسّس له، وطرح فيه نظرته، وبين ضمن طيّاته بغيته. ولنا في هذا الوقوف باختصار تعريفا وتقديما للكتاب، وبيان مواضيعه، وعناوين متنه.

-التعريف بكتاب دلائل الإعجاز: ألّفه الإمام أبي بكر، عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد الجّرجانيّ النّحويّ المتوفى سنة: (471هـ) خرج هذا الكتاب إلى الوجود كنسخة ورقية مطبوعة في عدّة طبعات مختلفة نذكر منها: "دلائل الإعجاز في علم المعاني للإمام عبد القادر الجرجاني صحّحه: الشّيخ محمد عبده مفتي الدّيار المصرية، والأستاذ المحدّث الشيخ: محمّد محمود التّركزي الشّنقيطي، ووقف على تصحيحه وعلّق حواشيه: السّيد: محمّد رشيد رضا، والنّاشر: مكتبة القاهرة، مصر، وسنة الطبع: (1380هـ- 1961م)، وعدد صفحاته: (346 صفحة). واعتبرت هذه النسخة أوّل طبعة نشرت بعد ما

كانت محفوظة كمخطوط ورقيّ في المكاتب، ثم خرج بطبعة أخرى من تحقيق محمّد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة عام: (1389هـ- 1969م) بصفحات عددها: (490 صفحة)، وهي النّسخة الثّانية من الطّبع بعد الأولى التي كانت عام: (1961م). وتلتها طبعات أخرى من دور طبع مختلفة بتحقيقات كثيرة منها: طبعة بتحقيق محمّد محمود شاكر من مكتبة الخفاجي: وهذه النّسخة منشورة في مواقع المكتبات الإلكترونيّة على غرار المكتبة الشّاملة والوقفيّة، ومتوفّرة كنسخة ورقية؛ رغم أنّ واجهة الكتاب لم تتضمن سوى عنوان الكتاب واسم مؤّلفه واسم المحقّق، ولم يذكر رقم الطّبعة، وسنة الطّبع، وعدد صفحاته: (685 صفحة)، وطبعة أخرى بتحقيق ياسين الأيوبي، من المكتبة العصرية والدّار النّموذجيّة، عدد صفحاتها: 434 صفحة ناهيك عن 'الطبعات الحديثة الأخرى'[17]. ونورد هنا بعض التعليقات حول طبيعة الكتاب ومادته: "لقد كان للأديب النّحوي الفقيه المتكلّم أبي بكر عبد القاهر الجرجاني قدمٌ راسخة ومكانة عالية في علم البلاغة، حيث صار ينسب إليه وحده تأسيس هذا العلم وكتابه الموسوم 'بدلائل الإعجاز'؛ هو خير دليل على ذلك وهو كتاب بديع في بابه تفرّد فيه صاحبه بتأسيس نظريّة النّظم التي هي عمود الدّراسات البلاغيّة، والتي لولا ما رسّمه لها الجرجاني واختطه فيها من علامات لضلّت خطى النّاس من بعده في هذا العلم، ومازال هذا الكتاب مثار اهتمام الباحثين والدّارسين في علم البلاغة إلى يومنا هذا"[18]. وتحدّث عنه عبد المجيد معلومي قائلا: "معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عَجْز الخلْق عن الإتيان بما تحدّاهم به. ولكن التّعجيز المذكور ليس مقصودا لذاته، بل المقصود، هو إظهار أنّه ذا الكتاب حقّ، وأنّ الرّسول الذي جاء به رسول صدق، وكذلك الشأن في كل معجزات الأنبياء؛ ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز، ولكنهم يبلّغون عن الله. والنّاظر في الكتاب الكريم بإنصاف تتراءى له وجوه كثيرة مختلفة من الإعجاز، ومن بين هذه الوجوه لغة القرآن وأسلوبه خصوصا أنّ النّبيّ (ص) تحدّى به الفصحاء والبلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان من أهل صناعة اللّسان، ومن المستغرب ألّا يقف الباحثون طويلا أمام كتاب «دلائل الإعجاز» لعبد القاهر الجرجاني، ومن المفترض أن نعطي هذا الكتاب حقّه. وإذا تفحصّنا ما يطرحه الجرجاني في كتاب «الدلائل» نرى أنّ النّحوي أخذ فصلا كبيرا فالألفاظ مُغْلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وإنّ الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها. ومع وضوح ما يطرحه، فإنّ ذلك يعتبر قاعدة صحيحة للمتذوق والدّارس في معرفة المعاني المستخلصة من الألفاظ ونحوها فلا يمكن التوصّل إلى فهم الألفاظ وارتباطاتها ببعضها إلّا من خلال النّحو...وخلاصة القول، فإن كتاب «دلائل الإعجاز» كتاب مهمّ"[19] له من الفائدة المضافة لعلم البلاغة شيء عظيم، فهو كتاب يمثّل: "دور الاكتمال في ثقافة عبد القاهر الذي كان قطع مراحل درس فيها علوم العربيّة والإعجاز والكلام"[20]، فقد تضمّن الكتاب في مطلعه تقديم صاحبه في خطبة الكتاب وبيان فضل العلم، ثمّ تلاه الحديث على البيان وما لحق به، وبعده فصل في الكلام عن الشّعر، ثمّ بيان سبب تأليف الكتاب،

وفاتحة القول في 'الفصاحة'[21] والبلاغة، ودليل الإعجاز في الرّد عن'المعتزلة'[22]، ثم بعده فصل في تحقيق القول في الفصاحة والبلاغة وقضية اللّفظ عند المعتزلة، وبعد ذلك فضل في الفرق بين قولنا حروف منظومة، وكلم منظومة، وبيان معنى النّظم، ثم فصل في أنّ النّظم توخّي معاني الإعراب، وبعده فصل في شرح الفصاحة، وفصل في اللّفظ، وفصل في الكناية، وفصل في الاستعارة، ثم فصل في النظم ومزاياه، وفصل في التقديم والتأخير، وفصل في مسائل الاستفهام، وفصل في الحذف، وفصل في الخبر وفصل في 'الّذي' خصوصا، وفصل في المعارف في الجمل، وفصل في الحال، وفصل في الفصل والوصل، وفصل في العطف وحالاته وفصول شتّى في أمر اللّفظ والنّظم، وفصل في توخي نظم اللّفظ وترتيبه، وفصل في الكلام، وفصل في استعمال الكلام، وفصل في تأويل الكلام، وفصل في المجاز، وفصل في تفسير قوله تعالى: ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ))[23]، وفصل في بيان دقيق في الكناية وإثبات الصفة عن طريقها، وفصل في إنّ ومواقعها، وفصل في مسائل إنّما، وفصل زيادة في بيان إنّما، وفصل في إزالة شبهة في شأن النّظم والترتيب، وفصل في مسألة اللّفظ والمعنى وما يعرض فيه من فساد، وفصل في تمام القول في النّظم، وفصل في بطلان أن تكون الفصاحة صفة للفظ من حيث هو لفظ، وفصل في مسألة التعبير عن المعنى بلفظين، وفصل في مناقشة الاحتذاء والابتداء والنّسق في إعجاز القرآن الكريم. وهكذا هو متن الكتاب ومادته؛ فلا شك أنّه يمثّل قراءة نظريّة لعلم البلاغة انطلاقا من الأبحاث التي سبقته ويمثّل وجهة علميّة جديدة لطرح علميّ جديد؛ مثّل مصدرا فكريّا لعلوم البلاغة، وللتوضيح: النّسخة التي نعتمدها في الدّراسة هي من تحقيق: محمّد رضوان الدّاية، وفايز الدّاية، دار النّشر: دار الفكر آفاق معرفة متجدّدة، دمشق، سورية، الطّبعة الأولى عام: (1428 هـ-2008م) عدد صفحاتها: (585 صفحة)

ومن خلال ما قدّمناه حول حياة الجّرجاني ومنهجه، ومن خلال وَصْفنا المُوْجَز لمواضيع كتابه في علم المعاني ((دلائل الإعجاز))؛ نقف عند التساؤلات الآتيّة: ما هي القضايا التي تضمّنها الكتاب حول علم المعاني؟. ولما خصّصها الجّرجاني دون غيرها؟. وكيف قرأ الجّرجاني هذه القضايا؟. وما هي أسسه المعرفيّة والمنهجيّة في قراءة قضايا علم المعاني؟. وبما أنّه أدرجها ضمن مباحث البلاغة، وعلم المعاني؛ كيف نؤصّل لها في النّحو العربي؛ لاعتبار أنّها لا تخرج عن فلسفة النّحو ؟. وفي الأخير ما هي بغيته من خلال إدراجه أسس جديدة تمثّل توجّها بلاغيّا جديدا في اللّغة العربيّة؟. وكيف لنا أن نقارب بين نظريّة النّظم، والمنحى الوظيفيّ التّداولي الحديث؟.

-قضايا علم المعاني في كتاب الجّرجاني: في كتابه نجد قضايا معيّنة أولى لها الجّرجاني -رحمه الله- اهتماما بالغا؛ بالوصف والشّرح، مبيّنا أهميتها في تراكيب الكلام واستعمالاته. ولنا في الشّطر أن نبيّنها كما يلي:

-التّقديم والتّأخير: وعنه علّق المؤّلف قائلا: "هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التّصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنظر سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شيء وحوّل اللّفظ، عن مكان إلى مكان"[24]، فالتّقديم والتّأخير أسلوبان بلاغيان دلالتهما عن "التّمكن في الفصاحة وحسن التّصرف في الكلام، ووضعه في الموضع الذي يقتضيه المعنى"[25]، لا ريب أنّ اهتمام الجّرجاني وعنايته بهذا القسم من علم المعاني؛ لم تنشأ عن صدفة، بل إنّ وقوعه وكثرة استعماله ضمن كلام النّحويين والبلاغيين؛ عزّز من أهميته؛ كأسلوب كلامي وجب الوقوف عليه جملة وتفصيلا. وللتّقديم أحوال ثابتة لا تتغيّر، وهي:

"1-تقدّم العلّة عن معلولها عند القائلين بها؛ كتقدّم الكون عن الكائنيّة والعلم عن العالميّة.

2-التّقدّم بالذّات؛ كتقدّم الواحد على الاثنين.

3-التّقدّم بالشّرف؛ كتقدّم الأنبياء على الأتباع.

4-التّقدم بالمكان؛ كتقدّم الإمام على المأموم.

5-التّقدّم بالزّمان؛ كتقدّم الأب على الابن"[26].

وفي حالاته الأخرى المتغيّرة لدواعي معيّنة؛ حيث يقدّم فيها المسند، و يؤخر المسند إليه، وهي:

أ- تقديم المسند: الأصل في استعمال الكلام أن يؤخّر المسند: وفيه استثناءات لدواع معيّنة، وهي:

1-التّخصيص؛ كقولك: ((الاجتهاد أنا أهله))؛ فالمسند هنا: (الاجتهاد وقدّم لداعي التّخصيص المباشر. والمسند إليه: ((الضّمير البارز: أنا)).

2-التّنبيه؛ مثل: ((تهاونك يا خالد)) فالمسند هنا: (تهاونك)، والمسند إليه (خالد) وتؤول بعبارة (يا خالد احذر تهاونك).

3-التّشويق؛ كقولنا: ((نجح ثلاثة طلبة وهم: محمّد، صالح، وأنت يا عمر)). نلحظ ورود عمر في القائمة الأخيرة كتشويق له.

4-التّفاؤل؛ ((ممتاز عملك فريد ستنجح بإذن 'الله تعالى')) المسند إليه توسّط الكلام (فريد) وكلمة (ممتاز) للتشجيع والتفاؤل وهي المسند.

5-الإفادة؛ وتكون بدلالة الاختصار المفيد؛ مثل: ((اقرأ تتعلّم))؛ فالمسند: محذوف دلّ عليه ضمير المتكلّم في الفعلين، المسند إليه (الفعل اقرأ، أو الفعلين معا).

6-التّأنيب والجزر؛ مثل: ((بطلت أعمالك يا حاسد))؛ فالمسند: (الحاسد)، والمسند إليه: (بطلت).

والشيء الملحوظ في هذه الأحوال للتّقديم والتّأخير أنّها متغيّرة بعكس ما أشرنا إليه في الحالات الستة الأولى.

وهذا التّغير الحاصل في هذا الأسلوب ربّما الأصل فيه كما قال الجّرجاني: (واسع التّصرّف، بعيد الغاية) بمعنى متغيّر الاستعمال لدواعي المتكلّم مراعاة للمخاطب وأحواله في الكلام.

-الفصل والوصل: يوضّح الجّرجاني أهميّة هذا القسم من علم المعاني في قوله: "اعلم أنّ العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها، والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، وممّا لا يتأتّى لتمام الصّواب فيه"[27]، والفصل والوصل هما أسلوبان بلاغيان رديفا الأساليب الأخرى كأسلوب التّقديم والتّأخير. فالوصل: "عطف جملة فأكثر على جملة أخرى بالواو خاصة، لصلة بينهما في المبنى والمعنى، أو دفع للبس يمكن أن يحصل"[28]، والفصل: "ترك العطف، إمّا لأنّ الجملتين متحدتان مبنى ومعنى، أو بمنزلة المتحدتين، لأنّه لا صلة بينهما في المبنى أو في المعنى"[29]. عن الوصل؛ نحو قولنا: ((نجح المجتهد في دراسته ونال مرتبة راقية من العلم))؛ فالجملة الأولى دلالتها في حال من أحوال المقصود بالقول وهو (المجتهد)، وتلتها الجملة الثّانية دالة هي الأخرى على حال المجتهد، وترتبط بسابقتها دلالة ومبنى، والواسطة بينهما في التّركيب هو حرف الواو العاطفة. وفي الفصل؛ نقدّم: ((انتصر المسلمون في معركتهم. عاد المقاتلون إلى بلادهم))؛ نلحظ التباين بين الجملتين الأولى والثّانية؛ فالأولى بيّنت حال المسلمين في المعركة، في حين أن الثّانية تكلّمت على طرف آخر لا صله بالمسلمين، وهم (الرّجال)، ومن النّاحية التّركيبيّة الجملة الثانية هي جملة ابتدائيّة استئنافيّة لا صلة لها بالأولى.

-الخبر والإنشاء: في هذا الباب لم يعنون الجّرجاني للخبر والإنشاء بمسمى واضح، أو عنوان ظاهر، بل خصّه بمسائل لها صلة بأساليب الخبر والإنشاء؛ كحديثه عن النّفي، ومسائل استعمال (إنّما)، والتّوكيد، وحديثه عن الاستعارة، والكناية،والتّشبيه، والمجاز. ومن حديثه عن الخبر قوله: "أوّل ما ينبغيّ أن يعلم منه أنّه ينقسم إلى خبر هو جزء من الجملة لا تتم الفائدة دونه، وخبر ليس بجزء من الجملة ولكنّه زيادة في خبر آخر سابق له. فالأوّل خبر المبتدأ كمنطلق في قولك: زيد منطلق. والفعل كقولك: خرج زيد. فكلّ واحد من هذين جزء الجملة وهو الأصل في الفائدة. والثّاني هو الحال كقولك: جاءني زيد راكبا. وذاك أنّ الحال خبر في الحقيقة من حيث أنّك تثبت بها المعنى لذي الحال كما تثبت بخبر المبتدأ للمبتدأ، وبالفعل للفاعل. ألا تراك قد أثبتّ الرّكوب في قولك: ((جاءني زيدٌ راكبا)) لزيد إلّا أنّ الفرق أنّك جئت به لتزيد معنى في إخبارك عنه بالمجيء، وهو أن تجعله بهذه الهيئة في مجيئه، ولم تجرد إثباتك للرّكوب..."[30]. الواضح من كلامه مقصده البلاغيّ في تحديد وظيفة الخبر والإنشاء دلاليا، وأثر ذلك لدي المتلقّي والسّامع؛ وهو مثاله في تقسيم الخبر إلى خبر بمثابة جزء من الجملة وجوده ضمنها يحقّق فائدة، وخبر ليس بجزء من الجملة يكون مرادفا لخبر سابق ووجوده ليس ضرورة؛ فمثال عن الأوّل: الخبر للمبتدأ: زيد منطلق، والثّاني: جاءني زيد راكبا، فالأول وظيفته تحقيق الإخبار؛ لأنّ

المبتدأ بدونه يظلّ مبهما، أمّا الثّاني: وظيفته الزّيادة في توظيف المعنى، وهو لا يمثّل ضرورة في ذكره ضمن الجملة.

-تخصيصه لبعض القضايا دون غيرها: لم يستثن عبد القاهر الجّرجاني مباحث بلاغيّة أخرى ضمن كتابه؛ بل تعدّى مباحث علم المعاني، وانتقل إلى علم البيان؛ كحديثه عن الاستعارة والكناية، وكان كتابه شروحا وتفسيرات لمباحث علم المعاني، وخصّ فيه قضايا محدّدة؛ ((التقديم والتأخير، والوصل والفصل، وأسلوبي الخبر والإنشاء))؛ لأنّ هذه القضايا تمثّل أحوال الإسناد في نظم الكلام ومعرفة خصائصه التّعبيريّة. وهذا ما توحي إليه نظرية النّظم؛ التّي خصّها بوافر كلامه ضمن كتاب دلائل الإعجاز.

-قراءته لقضايا علم المعاني، ومرجعه في ذلك: الجّرجاني اعتمد نمطيّة الشّرح والقياس والتّفسير المنطقي في تقديمه لقضايا علم المعاني مواضيع كتابه نحويّة من جانب الدّور الوظيفي التّركيبي الأصلي، وبلاغيّة من جانب الاستعمال في تحقيق الأداء الكلامي؛ قدّم قراءته وفق نظرته الجديدة والمتمثّلة في نظريّة النّظم؛ وكأنّه استنطق قواعد النّحو وكساها رؤية وظيفيّة بلاغيّة جديدة؛ تعتمد المقارنة بين الاستعمال القاعدي الأوّل والتّحوّل الكلامي في أساليب كلام العرب. فكان محاورا للأصل الكلامي النّحوي؛ ومجدّدا لمنفذ كلاميّا بلاغيا يعبّر عن قراءة فلسفيّة تحوّليّة ضمن محطّات البلاغة العربيّة. فقد تبنّى آلية موازيّة لعلوم المنطق في قراءة التّراث النّحوي والبلاغيّ معا أفضت 'نظريةً في اللّغة' بمثابة انطلاقة نحو قراءة جديدة.

-قضايا علم المعاني؛ بين النّحو والبلاغة: ما من علم وإلّا له منطلقات نظريّة وبواعث فكريّة؛ فلا تخلوا مباحث البلاغة، وإن تعدّدت من أواصل النّحو؛ فقضايا علم المعاني لا تخرج عن التّعريف لها من كونها فلسفة النّحو ومعانية المكنونة ضمن نسق الكلام، وغايته المنشودة الوقوف عن المؤول من الكلام ومعرفة خصائصه البلاغيّة، وتتبّع أحوال التّركيب من تقديم وتأخير ، ووصل وفصل، وكل ما يؤثّر في انعطافات العملية الكلاميّة بين الفاعل ((القائل))، والمتلقّي ((المستمع)). ومنه؛ فهذه القضايا في أصلها ما اتفق عليه العرب في تنحية كلامهم ونظمه؛ فهي قواعد النّحو . فإن بحثنا في طبيعتها الوظيفيّة كمفردة وجملة؛ فهي قواعد نحويّة ذو وظيفية تركيبيّة لا تخرج عن نظامها النّحوي. وإن نظرنا إليها من ناحية جماليّة أدائيّة؛ فهي قواعد بلاغيّة الهدف منها الوقوف عن خصائص نظام الكلام ضمن عملية التواصل بين المتكلّم والسّامع أو المتلقّي. والمستخلص هنا أنّ قواعد علم المعانيّ نحويّة التّركيب بلاغيّة الاستعمال.

-الجّرجاني، ونظريّة النّظم ((النّظريّة البلاغيّة الجديدة)) منطلق علميّ لفهم أحوال الكلام ونظمه: النّظم في اللّغة ضمّ شيء لشيء آخر لغرض معيّن؛ الغالب فيه توضيح أو بيان، أما في التّعريف الاصطلاحي لنظريّة النّظم هو: "واعلم أن ليس النّظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم

النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ، الرّسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها"[31]، يوحي معنى كلام عبد القاهر إلى وجوب معرفة أصول تركيب كلام العرب؛ كونه الأصل الأوّل في نظمهم على السّليقة، فإن تغير التّركيب لأحوال التّقديم والتأخير، أو لحذف وذكر، أو لداع آخر؛ فهذا فرضته الضرورة البلاغيّة (مقتضى الحال) أمّا الوقوف على أصل التّركيب؛ فهو ما يلزمنا معرفة قانون النّحو والمنهج والأصل؛ حتى لا نخرج عن أصول الاستعمال.
ويمكن هنا تحديد بغية الجّرجاني وأهدافه من تأسيسه لهذه النّظريّة وفق العناصر الآتية:
-ضبط قواعد الكلام وتحديد معاني الاستعمال.
-تحديد قانون النّظم ومعرفة أحواله وأصوله.
-التّفريق بين معاني الحروف ومعاني الكلمات ومعاني الجمل.
-نظريّة النّظم، واللّسانيات الوظيفيّة: ما توصلت إليه اللّسانيات الوظيّفية (أندري مارتني) في تحديد مجموعة وظائف لغويّة ترتكز عليها العمليّة الكلاميّة؛ لا يكاد ينفكّ على ما ترمي إليه نظرة الجّرجاني في شرحه لنظرية النّظم: فهو يقسّم الكلام إلى وظيفتين: وظيفة أصليّة نحوية تركيبيّة يحكمها قانون النّحو، ووظيفة أدائيّة بلاغيّة يخرج فيها الاستعمال عن أصله لأغراض عدّة منها: مستلزمات المقال لطبيعة المقام؛ ويكون هذا عن طريق تقديم ما أصله مؤخر، أو ذكر ما أصله مضمر، وما يتعلّق بضوابط الفصل والوصل، وأساليب الخبر والإنشاء. في حين أنّ اللسانيات الوظيفة هي الأخرى لا تبتعد عن هذا الوصف في تفسير وظائف الجمل. ونقف هنا عند وظائف الجمل في نظر اللّسانيين الوظيفيين، وهي:

1- الوظيفة التعبيريّة (Expressive)، أو الانفعالية: إذا كان تركيز الرسالة على المرسل، فالوظيفة التي تؤديها هي التّعبيرية، أي الانفعالية المرتبطة بالعاطفة. وتتعلّق بالرّسائل التي تركز على الحمولة الانفعالية، والتي يظهر فيها انطباع المرسل وتبرز عواطفه الوجدانيّة.

2- الوظيفة الإفهاميّة (Conative): إذا كانت الرسالة تركز على المرسل إليه، فالوظيفة المؤدية هي: الإفهامية. وهذا يخصّ الكلام الموجه بصيغة المخاطب، وهذه الرّسالة تتسم بأساليب الأمر والنهي والنّداء، وكلّ ما يتعلّق بالإنشاء. وتنتشر في الخطب الدينية والسياسية.

3- الوظيفة المعرفيّة (Cognitive)، أو المرجعية: إذا كانت الرسالة تركز على السياق أي مضمون الرسالة؛ فإن الوظيفة التي تؤديها هي الوظيفة المعرفية أو المرجعية، وهذا يخصّ الرسائل التي تتضمن

الإبلاغ والإخبار، على غرار الحديث اليومي كقراءة المقالات ومطالعة الكتب العلمية، ومتابعة الأخبار الصحفية.

4- الوظيفة الانتباهيّة (Phatic): إذا كان التركيز على الاتصال، فالوظيفة التي تؤديها الرسالة هي الوظيفة الانتباهية. وتتمثل في العبارات التي نرددها بقصد الحفاظ على صيرورة التّواصل بين المرسل والمستقبل، وصحة تمثل المستقبل لمضمون الرسالة.

فهذا التّخصيص وإن كان يتناسب وطبيعة اللّغات الهندوأوروبية؛ إلّا أنّ نقاط الاشتراك واضحة؛ تتمثّل في إدراك الباحثين الغربيين والعرب للطبيعة وظائف اللّغة؛ فقسّموها وحددوها الأصل والمتغير وبينوا نوع الوظائف، وإن اختلفت المادة المدروسة. فتوصّلوا على غرار ما توصّل إليه الجّرجاني إلى أنّ استعمال اللّغة تحكمه قنوات الاتصال المبنية بين المُخَاطِب والمُخَاطَب.

-نظريّة النّظم، واللّسانيات التّداوليّة: لا تخرج التّداوليّة أبدا عن نطاق البحث اللّساني الوظيفي في تحديد معاني الكلام. فقط الفرق يكمن: في أنّ الوظيفيّة ركّزت على دراسة الجانب الوظيفي التّركيبي في حين أنّ التّداولية نحت صوب دراسة استعمال اللّغة والاهتمام بالجانب الكلامي النّطقي، فبحثت في عمليات التّواصل وحدّدت أدواته وأركانه. ونقف هنا في وجه مقارنة بين ما نصّت عليه نظرية النّظم عند الجّرجاني وما تقرّه قواعد أفعال الكلام في محاولة منّا أن نقارب بين هذين المنحيين:

قواعد أفعال الكلام عند (سيرل وأوستين)، وهي مجموعة وظائف حدّدها سيرل وأوستين في أعمالهم، ونقف عند تعريفها :

1- أفعال وظيفتها تمثيليّة (Representatives): هي الأفعال التي تلزم المُخَاطِب بصدق القضية المعبّر عنها، ومن أمثلتها أفعال التقرير والاستنتاج والاستخلاص.

2- أفعال وظيفتها توجيهيّة (Directives): هى الأفعال التي تمثل محاولات المتكلم لتوجيه المتلقي (المستمع) للقيام بعمل محدّد، ومثالها أفعال الطلب والسؤال.

3- أفعال وظيفتها التزامية (Commisives): هي الأفعال التي تلزم المتكلم استعمال مجموعة أفعال دّالة على زمن المستقبل؛ كاستعمال أفعال الوعد والوعيد.

4- أفعال وضظيفتها تعبيريّة (Expressives): هى الأفعال التي تعبر عن حالة نفسية معيّنة تتعلّق بالمتكلم، وتكون في حالة الشّكر والتّرحيب والتهنئة، وكلّ ما يتعلّق بعبارات التّعبير.

5- أفعال وظيفتها إعلانيّة (Declaratives): هى الأفعال التي تحدث تغيّرات آنية فى أسلوب الأحداث اللّغوية العرفية التي غالبا ما تعتمد على خصائص اجتماعية بالإطالة ومن أمثلتها أفعال الحرمان وإعلان الحرب.

فما وجد عند الجّرجاني في قراءته لنظم الكلام وتحديده لمفهوم الوظائف يصبّ في خانة ما تمليه التّداولية في الفترة الحديثة فالجّرجاني ميّز بين أنواع الوظائف؛ فتحدّث عن الوظيفة النحوية

والوظيفة الدّلالية والوظيفة الصوتية، ثمّ ما تبنته نظريته في الوظيفة الأدائيّة أيّ البلاغيّة؛بل أنّ الجّرجاني تعدّى ذلك إلى التّمييز بين وظائف الأحرف ووظائف الكلمات.

نتائج واستخلاص: رغم أنّ ما أشرنا إليه موجزا كثيرا، وخاصة في شقّه الأخير ؛ إلّا أنّنا نخلص إلى نتائج ضمنيّة هامة:

-الجّرجاني باحث لغويّ مجدّد متأثر بفلسفة المنطق؛ واستعمل ذلك في حدود ما يسمح به نظام اللّغة العربيّة من خصائص وثوابت وباعتباره سنّيا أشعريا؛ فالميزة على أهل السّنة التّمسك بصلات التّراث ومحاورة المستجدات على شتى الأصعدة وفق منهج واضح وثابت.

-كتابه دلائل الإعجاز: يعدّ نقطة تحوّل في تاريخ البلاغة العربيّة، بل هو المؤسّس لعلم المعاني؛ فقد تبنّى فلسفة النّحو في فهم استعمالات كلام العرب؛ فهو محاولة منه تهدف إلى دراسة مقاصد الكلام من خلال عملية التّواصل بين المتكلّم (المتحدّث)، والمتلقّي (المستمع) وكذلك هو بحث غرضه معرفة أسباب تغير أساليب الكلام وبيان الأصل فيه؛ كمعرفة الأصل في المقدّم والمقدّم عليه (التّقديم والتأخير).

-نظريّة النّظم هي عصارة بحثه واجتهاده في مباحث علم المعاني؛ أوضح فيها قواعد النّظم، وخصائص الكلام، وشرح وظائف الكلام بدءا بالوحدة الصغرى؛ أي الحرف، ثم الوحدة المتوسطة (الكلمة)، ثم الوحدة الكبرى (الجّملة).

-ما تنصّ عليه نظريّة النّظم يتقارب نوعا ما مع المنحى اللّساني الوظيفي التّداولي؛ ففي الوظيفي: نجد الوظائف المسندة للجمل عند الجّرجاني، ووظائف الكلام عند الوظيفيين؛ وفي التّداولية المشترك هو عملية التّواصل التّي تبينّها قواعد في قواعد العملية الكلام وأفعال الكلام، وبين ما يوضّحه الجّرجاني في علاقة المتكلّم بالمتلقّي في فهم الكلام وتحديد معانيه.

وفي الأخير فإنّ باب النّظم عند الجّرجاني أو علم المعاني بصفة عامة يحتاج إلى متسع كبير لاستنطاق مكنوناته، ومعرفه بغيته العلميّة وخاصة؛ أنّ جل ما تمليه اللّسانيات الحديثة والمعاصرة يتقارب والمكنوز البلاغي العربي النّفيس، وسنتوسّع ((إن شاء الله)) في محطّات علميّة أخرى؛ سعيا منّا لتوضيح الغموض وكشف التّراث والتّجديد، ولما لا قد يكون هذا مجلٌّ لنظريّة لسانيّة عربيّة حديثة.

الإحالات والتّهميش:

1-جرجان: كما سمّاها العرب، و'كركان' بالفارسيّة، وكانت قديماً تسمّى 'أستراباذ' إحدى المدن الشّهيرة في إيران وتقع في شمالها وإليها ينتسب الشّريف الجّرجاني والقاضي الجّرجاني، ينظر الموقع الآتي، موجز في تعريف مدينة جرجان، بتصرف: http://ar.wikipedia.org/wiki.

2-هو محمّد بن الحسين بن محمّد بن الحسن بن عبد الوارث، أبو الحسين النّحوي بن أخت أبي علي الفارسي (ت421هـ) ينظر، معجم الأدباء لياقوت الحموي الرومي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ط1، ج6، 1993م، ص2524.

3- الجُرجاني، أبو الحسن (322 هـ - 392 هـ، 933 - 1001 م). علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني عالم موسوعيٌّ وأديب ناقد وقاض ومن أبرز أعلام القرن الرّابع الهجري.ينظر، الموقع الإلكتروني للموسوعة العربيّة العالميّة: http://www.mawsoah.ne

4-تاريخ ميلاد ووفاة الأعلام المشار إليهم: سيبويه أبو بِشْر: (148 هـ - 180 هـ / 765 - 796م) الجّاحظ أبو عثمان: وفاته (159 هـ-255 هـ) أبو علي الفارسي: (288-377هـ/900-987م)، ابن قتيبة: (213 هـ-15 رجب 276 هـ/828 م-13 نوفمبر 889 م)، قدامة بن جعفر: وفاته (000 - 337 هـ / 000 - 948 م)، العسكري أبو هلال: (395هـ- 1005م)، العسكري أبو أحمد: (293 - 382 هـ / 906 - 993 م) عبد الرحمان أبو الحسن الهمذاني: وفاته (327هـ -939م)، المرزباني أبو عبيد الله: (297 - 384 هـ / 910 - 994 م)، الزجاج أبو إسحاق: (241 هـ - 311 هـ /855 - 923م)، ينظر الموقع الإلكتروني الآتي بتصرف: http://ar.wikipedia.org/wiki.

5-الأشعرية: نسبة إلى إمامها ومؤسسها أبي الحسن الأشعري، الذي ينتهي نسبه إلى الصحابي أبي موسى الأشعري، هي مدرسة إسلامية سنيّة اتبع منهاجها في العقيدة عدد كبير من فقهاء أهل السّنة والحديث، فدعمت اتجاههم العقدي. ومن كبار هؤلاء الأئمة: ابن حبان، الدّارقطني، الحاكم البيهقي، الباقلاني، القشيري، الجويني الغزالي، الفخر الرازي (صاحب التّفسير الكبير)، البيضاوي (صاحب تفسير أنوار التنزيل)، التفتازاني (شارح العقائد النّسفية)، السيوطي (صاحب الإتقان في علوم القرآن)، النّووي (شارح صحيح مسلم وصاحب رياض الصالحين)، ابن حجر العسقلاني (شارح صحيح البخاري في كتابه فتح الباري)، القسطلاني (صاحب إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاري)، ابن عساكر (صاحب تاريخ دمشق الكبير)، ابن عقيل الحنبلي، وتلميذه ابن الجوزي، والعز بن عبد السّلام، والتّقي السّبكي، وغيرهم كثير من العلماء الأعلام، حتى إنّهم مثّلوا جمهور الفقهاء والمحدثين من شافعية ومالكية وأحناف وبعض الحنابلة، ينظر الموقع الآتي، مقال حول فرقة الأشاعرة بتصرف: http://ar.wikipedia.org/wiki.

6-الإمام شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النّبلاء، حقّقه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه شعيب الأرنؤوط ومحمّد نعيم العرقسوسي، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط11، ج18، ص432.

7-عبد القاهر الجّرجاني، دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر، تحقيق طلعت صلاح الفرحان، ومحمّد أديب شكور أمرير، دار الفكر، عمان،الأردن ط1، ج1، (1430هـ - 2009 م)، ص32.

8-إنّ نظرية النّظم من أهمّ النّظريات في البلاغة العربيّة، ومعنى النّظم في اصطلاح اللّغويين تنسيق دلالة الألفاظ وتلاقي معانيها بما تقوم عليه من معاني النّحو؛ أي الإتلاف والانتظام. وقد عرّفها صالح بلعيد في كتابه نظرية النظم،هي: ((التأليف والتنظيم والترتيب والجودة ومن ذلك صُنّف النّظم في علوم البلاغة باعتباره يسعى إلى رصف الكلمات وترتيب جودتها، وفي حسن التخيّر ومعرفة الموقع المناسب))، دارهومه للطّباعة والنّشر والتوزيع، الجزائر، 2004م، ص134.

9-ينظر، فهرس كتاب دلائل الإعجاز للجّرجاني،، تأليف: عبد القاهر الجّرجاني، تحقيق: محمّدرضوان الدّاية، وفايز الدّاية، دار النّشر: دار الفكر، دمشق، سورية الطبعة الأولى، (1428 هـ- 2008 م) ص21.

10- عبد المجيد معلومي، مجلّة دعوة الحق، مجلة شهرية تعنى بالدّراسات الإسلاميّة وبشؤون الثّقافة والفكر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة الرّباط، المغرب العدد343 (محرّم 1420هـ-ماي 1999م)، لم أحدّد رقم الصفحة لاعتبار أنّ المجلّة إلكترونيّة لا يظهر رقم الصفحة بدقة-حفاظا على الأمانة العلميّة.

11-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص65.

12-المقارنة المتزنة: الاطلاع على آراء علماء اللّغة حول تفسير مسائل اللّغة؛ كقضايا معاني النّحو مثلا: من حذف وتقدير وغيرها، والوقوف على مسافة واحدة في تقدير الصواب، وترجيح الآراء والموازنة بينها.

13-الأورغانون: هي مجموعة كتب أرسطو في المنطق، و«أورغانون» كلمة إغريقية تعني «الآلة»، قيل أنّ ابن المقفع نقل الكتب الأربع الأولى 'الأورغانون'، وهي «إيساغوجي» و«قاطيغورياس» و«باري ارمانياس» و«انالوطيقا» إلى العربيّة، كما قيل أنّ خالد بن يزيد بن معاوية طلب من بعض العلماء اليونانيين المقيمين في الإسكندرية ترجمة كتب الأورغانون إلى العربية، كما ترجمت كتب الأورغانون إلى العربية ضمن حركة الترجمة التي وصلت ذروتها في بيت الحكمة ببغداد في عصر المأمون. ينظر، الموقع الإلكتروني الآتي، بتصرف: http://ar.wikipedia.org/wiki.

14-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص30.

15-سمير أبو زيد، نظرية النّظم عند عبد القاهر الجرجاني بأوّل محاولة في العلوم الإنسانية، مجلّة المواقف للبحوث والدّراسات، كلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعية، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، الجزائر، العدد الأول، (ديسمبر-جانفي)، 2007م، ص295.

16-فؤاد علي مخيمر، فلسفة عبد القاهر الجرجانيّ النّحوية في دلائل الإعجاز، دار الثقافة للنّشر والتوزيع، (د-ط، د-م)، 1983م، ص6.

17-شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط9، (د-ت)، ص168.

18-المرجع نفسه، ص160.

19-عبد المجيد معلومي، مجلّة دعوة الحق.

20-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص17.

21-الفصاحة لغة: البيان والاستظهار والوضوح، واصطلاحا:فصاحة الكلام: سلامته بعد مفرداته ممّا يُبهم معناه ينظر، أحمد الهاشمي جواهر البلاغة، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى، (1427هـ-2006م)، ص20.

22-المعتزلة: فرقة كلاميّة ظهرت في بداية القرن الثّاني الهجري (80 هـ- 131 هـ) في البصرة (في أواخر العصر الأموي)، وقد ازدهرت في العصر العباسي، لعبت دوراً رئيسياً على المستوى الديني والسياسي اشتهرت بالنزعة العقلية وقالوا بالفكر قبل السمع، ورفضوا الأحاديث التي لا يقرها العقل، وقالوا بوجوب معرفة الله بالعقل وإذا تعارض النص مع العقل قدموا العقل لأنه أصل النّص، ولا يتقدم الفرع على الأصل، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، فالعقل بذلك موجب وآمر وناه لذلك فإنهم قد تطرفوا وغالوا في استخدام العقل وجعلوه حاكماً على النّص، بعكس أهل السّنة الذين استخدموا العقل وسيلة لفهم النص وليس حاكماً عليه ومن أشهر المعتزلة الزمخشري صاحب تفسير الكشاف، والجاحظ، والخليفة المأمون والقاضي عبد الجبار. ينظر الموقع الإلكتروني الآتي: http://ar.wikipedia.org/wiki، مقال نشر في شهر يوليو 2008م، بتصرف.

23-سورة، ق، الآية37.

24- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص143.

25-يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية، علم المعاني، علم البيان، علم البديع، دار المسيرة للنّشر والتّوزيع والطّباعة، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى (1427هـ، 2007م)، ص97.

26-المرجع نفسه، ص97.

27-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص232.

28- يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية، ص119.

29-المرجع نفسه، ص119.

30- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص191.

31-عبد القاهر الجّرجاني، دلائل الإعجاز، ص122.